الفصل السادس

الباكفو بين القوة والضعف

١ - يوشيمونى وإصلاح كيوهو :

وبما أن الشوجون السابع إيبتسوجو توفى وهو فى الثامنة من عمره كما ذكرنا آنفا فهو بالطبع لم يترك عقبا له وكان آخر شوجون من العصب الأصلى لعشيرة طوكوجاوا مما جعل المسئولون فى الباكفو يستدعون حاكم مقاطعة كيشو وهو من إحدى العائلات الثلاث المتفرعة عن عائلة طوكوجاوا. وكان يدعى طوكوجاوا يوشيمونى وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره، شابا مفتول العضلات فارع الطول (١٨٠ سم) قوى البنية والشخصية فى ذات الوقت، وقد تربى فى بيئة خشنة بعيدا عن مواطن الدعة والرفاهية، وكان دائما قابضا على سيف لا يقل طوله عن ٩٠ سم مما يعنى أنه كان قويا جدا وشجاعا أيضا.

وفى الشتاء وعلى الرغم من البرودة القاسية فى اليابان كان لا يرتدى سوى رداء واحد من القطن، وكان مأكله فى الغالب من الأرز الخشن غير المدروس. كانت حياته مختلفة إلى حد كبير عن حياة الشوجونات الذين من قبله، وعندما جاء يوشيمونى إلى إيدو وجد الأوضاع سيئة بشكل عام وعلى الأخص كانت الأوضاع الاقتصادية غير مرضية على الإطلاق، ولهذا صرح قائلا: «لابد من استعادة كل الأمور كما كانت أيام الشوجون الأول إيياسو». وبالفعل جاءت خطوات الشوجون الثامن

يوشيمونى الذى تولى الشوجونية فى عام ١٧١٦م (العام الأول من كيوهو) مواكبة لهذا التصريح القوى، وقام بإصلاحات عديدة أطلق عليها ثورة كيوهو الإصلاحية نسبة إلى التقويم الإمبراطورى الذى حدثت فيه هذه الثورة الإصلاحية الكبرى.

أدت حياة الدعة وسياسة المهادنة التى طبقتها الباكفو منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر إلى أن يركن الساموراى إلى الراحة وقضاء وقتهم فى اللعب واللهو وتركوا التدريبات الشاقة اللازمة للمحارب وأهمها الفروسية والسباحة واستعمال السيوف، وكذلك التدريب على صيد النسور والغزلان والخنازير، وغيرها من التدريبات القتالية التى لا غنى عنها للمحاربين وعلى الأخص هؤلاء الذين كانوا يقومون بحماية وحراسة الشوجون، ولذلك أمر يوشيمونى الساموراى بالتدريب الشاق على هذه الفنون القتالية، بل إنه كان فى بعض الأحيان يدربهم بنفسه على ركوب الخيل وكيفية التعامل معه، ثم قام يوشيمونى بعدة إجراءات من أجل تقوية الباكفو وضبط أحوال البلاد ومن أهمها ما يلى:

أ – صندوق المقترحات والشكاوى:

فى العام السادس من تولى يوشيمونى الشوجونية أى فى عام ١٧٢١م أسس هذا الحاكم القوى صندوقا للشكاوى ومقترحات الأهالى ووضعه أمام محكمة إيدو العليا، وقصد يوشيمونى من إنشاء هذا الصندوق معرفة آراء المواطنين بطريقة مباشرة فى سياسته. ومن بين الخطابات الكثيرة التى وضعت فى الصندوق لفت نظر الشوجون خطابا مطولا من ساموراى متقاعد يدعى ياماشيتا كوناى Yamashita Konai ومن ضمن المقترحات التى اقترحها هذا الساموراى ما يلى:

١ – يجب عدم الإنفاق إلا فى حدود الضرورة، لأن الإنفاق الزائد عن الحد يؤدى إلى فساد موظفى الباكفو وإدارتها.

٢ – يجب التخفيف من العقوبات وعدم إصدار أحكام بالإعدام بطريقة عشوائية وعدم الإسراف فيها.

٣ – منع الرشاوى والتوسلات التى يضطر المواطنون لأدائها للموظفين العموميين وذلك لإنجاز مصالحهم.

٤ – تقديم المساعدات من أجل إنجاز أعمال البر لتجنب أخطار الفيضانات وكذلك من أجل استصلاح أراضى جديدة إلى جانب تشجيع الفنون القتالية وغيرها من المقترحات التى أخذ ببعضها يوشيمونى وطبقها بالفعل.

ومن المقترحات التى أخذ بها أيضا يوشيمونى اقتراح بإنشاء مركز طبى لعلاج المواطنين مجانا قدمه طبيب يدعى أوجاوا شوسن Ogawa Shosen وبالفعل تم إنشاء هذا المركز الطبى فى عام ١٧٢٢م (٧ من كيوهو) وكان يضم أقساما لأمراض الباطنة والجراحة والرمد، وربما يذكرنا هذا المركز الطبى بمستشفى قلاوون الذى أنشأه السلطان المنصور قلاوون فى أواخر القرن الثالث عشر بمدينة القاهرة لعلاج المواطنين.

ومن المقترحات الهامة التى جاءت أيضا فى خطاب وضعه ساموراى متقاعد وأخذ به الشوجون يوشيمونى ذلك النظام الجديد الخاص بإطفاء الحرائق التى اشتهرت بها مدينة إيدو، وكان هناك آنذاك مثل شعبى يقول إن مدينة إيدو هى مدينة الحرائق والمشاحنات حيث كانت كثافة السكان مرتفعة جدا ، وهؤلاء لم يكونوا يستخدمون سوى المساكن الخشبية المتلاصقة فكان إذا حدث حريق يأتى على معظم المساكن

ويدمر ويقتل العديد من الناس. أما المشاحنات فكانت كثيرا ما تحدث بسبب ما عرف عن أهل إيدو من مزاج حاد، ولكن بالطبع هذا المثل لم يعد مطبقا فى عصرنا هذا على الإطلاق لاختلاف طبيعة المبانى وكذلك لتغير أحوال العباد.

وقد مر بنا ما أحدثه حريق ميركى الرهيب (Meirekinotaika) الذى دمر مدينة إيدو فى عام ١٦٥٧، وكذلك فقد وقعت عدة حرائق كبيرة استمرت من يناير إلى مارس من عام ١٧٢١م (٦ من كيوهو)، وقد أتت هذه الحرائق على ما يقرب من ١٤٣ ألفا من بيوت الساموراى وأهل المدينة وكذلك المعابد. وإذا ما عرفنا أن عدد مساكن أهل إيدو آنذاك كانت مائة وثلاثين ألف مسكن تستطيع أن تدرك مدى كثرة عدد الحرائق التى حدثت فى تلك الفترة التى وافقت العام السادس من تولى يوشيمونى للشوجونية.

على أية حال فقد تم تغيير النظام القديم لإطفاء الحريق، فمن أجل تجنب الحرائق الممتدة فقد تم إنشاء طرق واسعة وأماكن مفتوحة وكذلك تشجيع إنشاء المخازن الحجرية والبعد عن المخازن الخشبية وكذلك تم تأسيس ٤٧ فرقة سميت بالحروف الهجائية اليابانية، وبعد ذلك تم إضافة ست عشرة فرقة أخرى ليصبح عدد الفرق المنوط بها إطفاء حرائق مدينة إيدو ثلاثا وستين فرقة. وفى عام ١٧٣٠م (١٥ من كيوهو) تم توحيد وتقوية هذه الفرق فأصبحت تتكون من عشر فرق كبيرة فقط.

ب - فرمان التقشف :

كما أسلفنا القول بأن يوشيمونى أراد أن يعيد أحوال الباكفو والبلاد بشكل عام كما كانت أيام الشوجون الأول إييياسو. ولذلك أخذ فى التشديد على الساموراى وجعلهم يتركون حياة الترف والدعة. ومن أجل

إصلاح أحوال الاقتصاد أصدر فرمانا بالتقشف والبعد عن الرفاهية التى كان يرفل بها طبقة الأغنياء خلال فترة جنروكو وما قبلها، ومن أجل تحقيق هذا الهدف استبعد سياسة اللين ومبادئ الكونفوشوسية وعاد إلى السياسة العنيفة والمتشددة التى كانت مطبقة أيام الشوجونية المبكرة.

وكانت حياة الشوجون يوشيمونى نفسه خير قدوة لغيره من الدايميوات والهاطوموطو وهى الطبقة العليا من الساموري، وكذلك عامة الشعب لكى يجربوا حياة التقشف وذلك من أجل خفض المصروفات وضم فرمان التقشف المأكل والمشرب وأدوات الزينة وغير ذلك من مناحى الحياة. فقد حرم هذا الفرمان ارتداء الملابس الغالية الأثمان ومن تناول الأطعمة غالية الثمن مثل سمك الشبوط. كذلك حرم هذا الفرمان ممارسة الألعاب التى تحمل صبغة الرفاهية، ومنع البنات من استخدام ممسكات الشعر الغالية الثمن أيضا. وإلى جانب ذلك منع المحاربين من امتلاك السيوف والخناجر ذات المقابض الموشاة بالذهب والفضة وغيرها من المعادن النفيسة.

ومن كثرة وقسوة الأوامر بالتقشف أخذ سكان المدينة يتندرون على الشوجون وأوامره بكتابة لافتات ذكروا فيها مثلا يجب أن يكون ذيل الطائر الجبلى قصيرا مثل ذيل الدجاجة وعدم إطلاق اسم السمك الذهبى على سمك الزينة ولكن يجب تسميته بالسمك الفضى، وغير ذلك من النكات التى تتهكم على فرمانات التقشف. فإذا ما اكتشف أتباع الشوجون مثل هذه اللافتات كانوا يحطمونها على الفور ويلعنون من صنعها.

ومن أجل زيادة موارد الباكفو أيضا أمر الشوجون يوشيمونى الدايميوات زيادة الضرائب العينية من الأرز التى كانوا يدفعونها

للباكفو، وفى مقابل ذلك خفض الشوجون من فترة المداومة التى كان على الدايميوات وأسرائهم أن يقضوها فى كنف الباكفو بالعاصمة إيدو وجعلها ستة أشهر فقط بدلا من سنة كاملة، وكان نتيجة تطبيق هذا النظام حصول الباكفو على ما يقرب من ١٩٠ ألف جوكو من الأرز، الأمر الذى أنعش اقتصاد الباكفو إلى حد ما وإنقاذها من الإفلاس، ولما كان اهتمام يوشيموتى بالأرز شديدا فقد أطلق عليه شوجون الأرز ولكن تطبيق فرمان التقشف بكل الحزم والقوة أدى أيضا إلى نتائج سلبية، ذلك لأن هذا الأمر منع صنع وتداول بضائع ومأكولات عديدة مما أدى إلى حدوث ركود فى حركة الأموال وسبب خسائر كبيرة للتجار والصناع، وامتد هذا بالتالى إلى عامة الشعب.

ج - تعديل وتحسين الأوضاع القضائية :

كان لانتعاش التجارة ومعاملاتها خلال الفترة السابقة على شوجونية يوشيمونى واستمرار هذا الانتعاش خلال فترة كيوهو أيضا أثره المباشر فى زيادة المعاملات المالية، ولكن كان لهذه الزيادة أيضا آثار سلبية تمثلت فى عدم وفاء كثير من المدينين بدفع ما عليهم من ديون. الأمر الذى أدى إلى تزايد عدد الشكاوى والقضايا المتعلقة بأمور التجارة والأحوال المالية لدرجة أن ديوان المدينة التابع للباكفو تلقى فى عام ١٧١٨م ستة وثلاثين ألف شكوى احتوت على ٩٠٪ منها على شكاوى تجارية ومالية، وكان معظم المتهمين فى هذه الشكاوى من الساموراى المتقاعدين.

ومن أجل إصلاح هذه الأمور المعقدة أصدرت الباكفو فى عام ١٧١٩م (٤من كيوهو) ما سمى بقانون إنهاء المشاكل بين الطرفين

(Aitaisumashirei) ، وذلك من أجل خفض عدد القضايا بين أطراف المشاكل المالية والتجارية وغيرها.

وفـى الحقيقة أن الباكفـو كانت قد أصدرت مثل هـذا القانون عدة مرات قبل قانون كيوهو السـالف ذكره، بل وأصـدرت بعده أيضا عدة قوانين مماثلـة، ولكن قانون كيوهو يعد أشـهر هذه القوانين بخصوص إنهاء الخصومة والنزاع بين الأطراف المتقاضية بعضهم البعض.

وفـى عام ١٧٤٢م اسـتطاع أوكا – تاداسـوكى Ooka Tadasuke (١٦٧٧م – ١٧٥١م) بـأمـر مـن الشـوجون يوشـيمونى إصـدار قانون الإجراءات العام، ويعتبر هذا الكتاب القانونى أول كتاب قانونى بالمعنى الحقيقـى يصـدر فى عصر إيـدو. وقد صدر فى جزءيـن: الجزء الأول حوى الإجراءات القانونية والشرطية، أما الجزء الثانى فقد احتوى على مائـة وثلاث من المـواد تتناول إجراءات التقاضـى والعقوبات الجنائية وغيرهـا من العقوبات، ومن أهم المواد التـى احتواها هذا القانون الهام هى خفض وتقليل العقوبة التى سميت بالمسـئولية المتصلة والتى كانت العقوبة الجنائية تقع على أسـرة وأقارب الجانى أيضا، وكذلك قلل هذا القانون من عدد العقوبات التى كان يتم بموجبها تعذيب الجانى، ولكن برغم ذلك فقد شـدد هذا القانون من العقوبات التى تقع على من يخرق العلاقة بين السيد والمسـود، وذلك بالطبع بسبب المفاهيم الكنفوشوسية التى ترفع من شأن السيد إلى عنان السماء، فكان من يقوم بجرح لسيده يلقى عقوبة الإعدام عقابا له، كذلك عوقب بالإعدام من سـرق أكثر من عشـرة ريو من الذهـب أى أقل قليلا من أربعين جرامـا، وهذا بالطبع عقاب رادع وشنيع فى ذات الوقت.

وعلـــى الرغم من التناقضات والأحكام غير المنطقية التى جاءت بهذا القانون إلا أن هذا القانون وضع مقاييس معينة تسير عليها العقوبات ولم تأت على هوى الشـــوجون أو الدايميو، فكما رأينا فى حادثة ســـاموري أكو أو الأوفياء التى تحدثنا عنها بالفصل الســـابق وكذلك فى العقوبات التى كانت تصدر فى حق من يخالف أمر العطف والاهتمام بالحيوانات وخاصة الكلاب الذى أصدره الشوجون غريب الأطوار تـــونايوشى، فقد كانت هذه العقوبات تصدر على هوى الشـــوجون أو المستشارين ولم يكن هناك مقياس أو قانون موحد ينظم هذه العقوبات.

وهكذا نجد أن يوشـــيمونى وثورته الإصلاحية اعتمدا على أشـــخاص ذوى خـــبرة وقـــدرات عالية، وكذلك فقد جاءت سياســـته لتكون مقنعة لعامة الشعب، وكان هذا القانون السابق ذكره أحد هذه السياسات.

د – الشوجون المحب لكل جديد :

وشـــىء آخر ميز هذا الشـــوجون ذى الرؤية البعيدة الثاقبة فقد أحب كل شـــىء جديد نافع لثورته الإصلاحية ولبلاده، فقد طلب من الوكالة التجاريـــة الهولنديـــة – والتى كان مســـموح لها من دون الجنســـيات الأوربيـــة الأخرى التعامل التجارى مع اليابان – أن تمده بتلســـكوبات وســـاعات وكذلك بالكتب العلمية المتخصصة، هـــذا إلى جانب الغريب من الحيوانات والنباتات غير الموجودة باليابان وخاصة الحصان العربى والفيل، وكان طلبه للحصان العربى منطقيا وذلك لتحسين سلالة الخيول اليابانية والتى كان لا غنى عنها فى الحروب وفى مختلف المناســـبات اليابانية، وفى خلال عشـــر ســـنوات استطاع اســـتيراد ثلاثين حصانا عربيا.

وهكذا وكما ذكرنا لم يكن حرص يوشيمونى لاقتناء الأشياء الجديدة من أجل الهواية وحب الجديد فقط ولكن لنفعتها، وكذلك لاستعمالها استعمالا فعليا وليس لمجرد الزينة، ومن ثم انتقلت هذه الروح الإيجابية إلى كل نواحى ثورة يوشيمونى الإصلاحية، والدليل على ذلك أنه سمح للكتب الغربية بالدخول لليابان وقراءتها طالما لا تتحدث عن المسيحية التى كانت ممنوعة ومحرمة فى اليابان آنذاك، وبذلك استطاع اليابانيون الإطلاع على الكتب العلمية الغربية والاستفادة من العلوم الغربية المتقدمة، ومن أجل ذلك أمر يوشيمونى أستاذ العلوم الهولندية أوكى كونيو Aoki Konyo (١٦٩٨م - ١٧٦٩م) بتأليف كتاب لتعليم اللغة الهولندية. ثم أصبحت كتابات كونيو البداية الفعلية للعلوم الهولندية فى اليابان، ولذلك فهو يعتبر رائدا للعلوم الغربية فى اليابان ومن شغف يوشيمونى بالعلوم الفلكية فقد أنشأ فى منطقة كاندا بمدينة إيدو عاصمة الباكفو مرصدا فلكيا ، بل إنه كان يرصد بنفسه الكواكب، كذلك قام أستاذ العلوم الهولندية أوكى كونيو بتشجيع من الشوجون يوشيمونى بتجربة ناجحة لزراعة البطاطا فى مزرعة كو إيشيكاوا للأعشاب. ولم تكن البطاطا آنذاك معروفة فى اليابان إلا فى جزء صغير فى جنوب البلاد، وكان هدف هذه التجربة استخدام البطاطا كمحصول منقذ من مخاطر المجاعة خاصة بعد التجربة المريرة التى مرت بها البلاد بعد مجاعة كيوهو الرهيبة والتى سوف يأتى الحديث عنها فيما بعد. كذلك قام يوشيمونى بزراعة محاصيل الرفاهية مثل السكر والجزر الكورى وغيرهما.

وبرغم السياسة الإصلاحية التى اتخذها يوشيمونى فى شتى المجالات

تقريبا سواء كانت سياسية أو قانونية أو علمية أو حتى اجتماعية أثرت جميعها فى شكل الحياة للمواطن، إلا أن المجاعة الكبرى التى حدثت فـى عام ١٧٣٢م (١٧ من كيوهو) والثورات التى قام بها سـكان المدينة والفلاحـين جراء هذه المجاعـة والتى وصل عددها إلى تسـعين هوجه وإجراءات التقشـف التى قام بها يوشـيمونى فى فترة كيوهو لم تجعل الأمور تسير على هوى يوشيمونى ومعاونيه من رجال الباكفو.

أمـا مجاعة كيوهو فتعد من المجاعات الكـبرى التى ذاقت مرارتها اليابان آنذاك، فقد تحدثنا عن أثر الكساد الرهيب الذى أصاب محصول الأرز بسـبب البرودة الشـديدة وهجوم جحافل الجراد على حقول الأرز مما أدى إلى نقصان شـديد فى إنتـاج الأرز وهذا بالطبع أدى إلى ارتفاع سـعر الأرز إلى عنان السـماء، وبالذات فى المدن الثـلاث الكبرى إيدو وكيوطو وأوسـاكا، فزاد عدد المنتحرين والشـحاذين، ولم تقف الباكفو مكتوفـة الأيدى وحاولت إنقاذ ما يمكن إنقـاذه فقامت بإمداد المواطنين بـالأرز المطهى وغير ذلك من الوسـائل إلا أنـه لضخامة المجاعة وعدد المحتاجـين للطعـام ذهبت جهـود الباكفو أدراج الريـاح، وجراء هذه المجاعة وما تبعها من أهوال قام فقراء مدينة إيدو بأحداث هوجة كبيرة هاجمـوا على أثرها محال الأرز ومكاتب الرهونات التى تقرض المواطنين وكان ذلك فى العام التالى للمجاعة أى فى عام ١٧٣٣م (١٨ من كيوهو)، وكان أكثر الأماكن التى هاجمها الغاضبون شهرة منزل تاجر جملة للأرز يُدعـى تاكاما دنبـى Takama Denbee، ووصل عدد هؤلاء المهاجمين إلى أكثر من ألف شخص قاموا بتحطيم المنزل بل إنهم قاموا بإلقاء أثاث البيت فى النهر القريب من بيت التاجر.

وقد قام هؤلاء الغاضبون بفعلتهم هذه لاعتقادهم أن التاجر دنبى هذا

وهو من التجار الذين يتعاملون مع الباكفو اشترى كميات كبيرة من الأرز وقام بتخزينها من أجل رفع سعر الأرز.

على أية حال أسفرت هذه المجاعة الرهيبة على ضحايا كثيرين وصل عددهم إلى أكثر من عشرة آلاف متوفى، ونفوق ما يزيد على خمسة عشر ألف رأس من البقر والخيول، فكانت بحق من كبرى المجاعات التى طالما عانت منها اليابان طوال عصر إيدو.

وبعد مجهود مضنى وإنجازات عديدة تنازل الشوجون الثامن يوشيمونى بمحض إرادته عن منصب الشوجونية لابنه البكر إييى شيجى فى عام ١٧٤٥م أى بعد حوالى ثلاثين عاما فى هذا المنصب الرفيع، ثم انتقل يوشيمونى إلى القصر الغربى (Nishinomaru) وتوفى فى عام ١٧٥١م عن عمر يناهز الثمانية والستين من عمره.

٢- عصر تانوما :

بعد ترك يوشيمونى للشوجونية تولى ابنه الأكبر إيى شيجى Ieshige (١٧١١ - ١٧٦١م) المنصب ولكن لم يكن إيى شيجى خير خلف لخير سلف، لم يكن يهمه سوى اللهو واللعب وترك كل أمور الباكفو لمستشاره أوأوكا تاداميتسو Tadamitsu Ooka (١٧٠٩م - ١٧٦٠م) الذى كان الوحيد الذى استطاع فهم كلامه الذى كان غير مفهوم، وفى زمن هذا الشوجون التاسع زادت أحوال الباكفو الاقتصادية سوءا.

وفى عام ١٧٦٠م تولى ابن إيى‌شجى الشوجونية ليصبح الشوجون العاشر وكان يدعى إييهارو Ieharu (١٧٠٩م - ١٧٦٠م) وكان هذا الشوجون قصير البال، غير مهتم على الإطلاق بالأمور السياسية وتركها فى يد مستشاره تانوما أوكى تسوجو Tanuma Okitsugu (١٧١٩م - ١٧٨٨م)

الـذى أدار أمـور البلاد كما يريـد وعاونه ابنه أوكـى طومو Okitomo (١٧٤٩م – ١٧٨٤م) الذى قُتِل على يد غريم له من الساموراى عام١٧٨٤م (٤ من تمى) Temei .

وقد خطط تانوما ومعه ابنه أوكى طومو من أجل إصلاح اقتصاد الباكفو المتدهـور. ولكنه أدرك منـذ البداية أنه لا طائل من الاعتماد على فرض ضرائـب عينيه (Nengu) جديدة على الفلاحين لإدراكه أن هذا الضرع قـد جف من كثرة ما فرض عليه من ضرائب ومما كان يجعل الفلاحين يقومون بثورات وهوجات ضد الباكفو ووكلائها من حكام الأقاليم ولذلك فقد وجد تانوما ضالته فى كبار التجار وخاصة تجار أوساكا.

ولكـن قبـل الحديث بالتفصيل عـن طريقة إصـلاح تانوما لاقتصاد الباكفو يحسـن الحديث عن كيفية وصـول تانوما إلى مركز يؤهله لإدارة شـئون البلاد دون أن ينازعه منازع. بل إنه اسـتطاع ذلك بدون مساعدة مـن أحد. فقد افتقد تانوما للعائلة ذات الموقع الاجتماعى الرفيع وافتقد أيضـا المال. فقد كان والـده محاربا من الطبقة الأدنى (Ashigaru) من نفس المقاطعة التى أتى منها الشـوجون العظيم يوشـيمونى. ثم أتى مع هذا الشـوجون الذى رفع من شـأنه وجعله محاربا من فئة الهاطوموطو وهى الفئة المتميزة والأعلى بين السـاموراى. وبرغم ذلك اسـتطاع الابن أوكـى تسـوجو أن يترقى إلى المراتب الأعلى بعد سـنوات قليلة فأصبح يتقلد وظيفة هامة فى الباكفو هى المداوم للمستشـار أثناء ساعات الليل. وذلك لأن صاحبها يمكث سـاهرا فى الغرفة التالية لغرفة الشـوجون. وفى سـن التاسـعة والثلاثين من عمره أصبح ممن يمتلكون عشرة آلاف جوكو من الأرز (الجوكوت ١٨٠ لترا) ثم سرعان ما أصبح دايميو لمقاطعة ساجارا (جزء من محافظة شيزو أوكا).

وإذا كان لقدرات تانوما بعض الأسباب لهذا الترقى، فإنه لا يمكن إغفال أسباب أخرى غير شريفة كان لها أثرها فى هذا الارتفاع السريع لأوكيتسوجو. فمثلاً كان يعمل على تزويج أبنائه وأتباعه من بنات وأبناء رجال السلطة، وكذلك كان يتلاعب بحريم الشوجون عن طريق إهداء نسائه الكثير من الهدايا وكان أغلبها ذهبا، وأصبحت الرشاوى هى الوسيلة الأساسية التى يتحرك بها تانوما فهو يعطى الكبار لينال رضاءهم ويسهل أموره، وكذلك يأخذ ممن هم أقل مكانة ليلبى طلباتهم؛ فكان صغار السامورای يدفعون له للحصول على وظائف فى الباكفو، وكان التجار يدفعون له أيضا طمعا فى تصاريح احتكار سلع بعينها وهكذا أصبحت الرشاوى هى التى تحرك كل شىء تقريبا لكل من يتعاملون مع أوكيتسوجو.

ولم يتلق أوكيتسوجو رشاوى من أجل إنهاء الأعمال الصغيرة من مثل إيجاد وظائف أو تخصيص تصاريح لسلع معينة فقط بل إنه تلقى رشاوى من رجال أعمال وتجار كبار جدا خاصة من أوساكا لإنهاء أعمال كبرى مثل استصلاح وردم برك وبحيرات ضخمة مثل بركتى إينبا وتجا Inba – Tega الواقعتين فى شمال وشمال غرب محافظة تشيبا، وكانت هناك عدة محاولات ردم هاتين البركتين وذلك فى عصر يوشيمونى وتانوما إلا إنها فشلت جميعا بسبب الفيضانات أو بسبب انهيار نظام تانوما أوكيتسو وأخيرا تم ردم نصف بركة إينبا بعد الحرب العالمية الثانية وكانت مساحتها فى الأصل ٤٧ كم٢، وتم أيضا ردم حوالى ٧,٣ كم٢ من مساحة بركة تجا التى كانت مساحتها فى الأصل تصل إلى ١٠كم٢ .

وقد أوهم تانوما أوكيتسو جو نفسه بأن الرشاوى العديدة التى كان يتلقاها من التجار والساموراى وغيرهم هى فى مصلحة سيدة الشوجون، ولكن فى الحقيقة كان هذا الفساد يستدعى فسادا آخر، والرشاوى تستدعى رشاوى أخرى حتى سميت سياسة تانوما بسياسة الرشاوى، وقد نتج عن هذه السياسة الفاسدة علاقة فاسدة أيضا بين موظفى الباكفو وبين العديد من التجار، مما أدى إلى حدوث فوضى فى سياسة البلاد. ووسط هذه الأجواء الفاسدة ارتفعت مكانة تانوما أوكيتسو جو فى الباكفو من مجرد الشخص المقرب من الشوجون (Sobayōnin) إلى مركز المستشار الأكبر (Rōjū) وسرعان ما تجاهل من سبقوه من مستشارين بل وقبض على كل السلطات بمفرده. وهكذا تم تأسيس ما أطلق عليه عصر تانوما فى التاريخ اليابانى.

كان أكثر المشكلات صعوبة أمام تانوما هى كيفية إصلاح اقتصاد الباكفو المتدهور، وقد كان الاعتماد على الضرائب العينية هو الوسيلة الأساسية من أجل هذا الإصلاح فى عصر يوشيمونى ولم يتغير الحال فى عصر الشوجون إييئيجى والعاشر إييهارو، ولكن كان القلق يعترى تانوما إذا ما زاد الضغط على الفلاحين أكثر من ذلك فيجعلهم يقومون بثورات وهوجات لا تحتمل الباكفو تداعياتها، وكذلك لم يكن من المستطاع الاعتماد على سياسة التقشف لما لها من تداعياتها السيئة أيضا، وهنا وجد تانوما ضالته فى التجارة وفى التجار لأن أرباحها وأرباحهم كانت كبيرة.

قام تانوما بإنشاء روابط وطوائف للتجار على اختلاف نشاطهم. فجعل لتجار النحاس رابطة ولتجار البرونز رابطة ولتجار الجزر وكان

من السلع الرفاهية أيضا رابطة وجعل السلع التى فى أيدى هؤلاء التجار سلع احتكارية يأتى عن طريقها ربح كبير للباكفو، كذلك أنشأ بما عرف بروابط الأسهم والتى عن طريقها استطاع التحكم فى تجار المدن والريف على السواء. ثم فرض على هؤلاء التجار نوعين من الضرائب، الأولى تسمى ضريبة الشكر (Myōgakin) ومفادها أن التجار يدفعون هذه الضريبة للتعبير عن شكرهم للباكفو وللمقاطعة التى يتبعونها وذلك لحمايتهم وإعطائهم الامتيازات التجارية التى تدر عليهم الكثير من الربح، أما الضريبة الثانية فهى الضريبة المتنوعة (Unjō) والتى كانت تفرض على مجالات شتى من التجارة.

وبما أن ميناء ناجاساكى كان الميناء الذى يكاد يكون الوحيد الذى تمارس فيه التجارة الخارجية على نحو كبير، فقد قام تانوما باحتكار السلع الهامة التى يتم تداولها فى هذا الميناء الكبير وأهمها النحاس والحديد والبرونز والجزر الكورى وحجر الشبه وغيرها، ومن أجل الحصول على أكبر ربح ممكن من التجارة فى هذه السلع فقد تم تحديد الروابط التجارية وتجار الجملة الذين يتعاملون مع هذه السلع.

وكما ذكرنا آنفا حاول تانوما استصلاح وردم العديد من البحيرات والبرك من أجل إنشاء حقول واسعة للأرز وذلك لزيادة موارد الباكفو من الضرائب العينية وخطط كذلك لإنشاء قناة مائية ضخمة تربط بين نهر تونيجاوا الذى يعد أحد أطول أنهار اليابان والذى يصل طوله إلى ٣٢٢ كيلو مترا. ويمر فى ثلاث محافظات كبيرة هى نبياجاتا وناجانو وجونما حتى يصل إلى مدينة إيدو، وكان يهدف من وراء ذلك أيضا تجنب مخاطر فيضان هذا النهر الكبير، ولكن حدث فى عام ١٧٨٦م

اندفـاع رهيب للمياه تحطمت على إثره التحصينات التى لم يكن قد مر عام على إنشـاءها فآل المشروع إلى الفشل وبانتهاء نظام تانونا في نفس العـام لم يكتمل هذا المشـروع الذى كان من الممكـن أن يكون مفيدا جدا للزراعة ولمدينة إيدو.

وإلى جانب ذلك عمل تانوما على تنمية جزيرة إيزو تشى (هوكايدو) خاصـة أن هذه الجزيرة كانت غنية بالموارد البحرية الهامة التى كانت تصدر عن طريق ميناء ناجاسـاكى ، وأيضا خطط تانوما من خلال تنمية هذه الجزيرة إلى تنمية التجارة الخارجية مع روسـيا، وقد أرسل تانوما عدة مجموعات استكشافية لجزيرة إيزوتشى، وكان الهدف الآخر لتانوما من وراء ذلك إرسـال سـبعين ألفا من المهاجرين إليها والقيام باستصلاح الحقـول وخاصة حقـوق الأرز ولكن هذا الحلم أيضـا راح أدراج الرياح بسبب سقوط نظام تانوما.

ولكن على الجانب الآخر فقد وجدت سياسـة تانوما الإيجابية آثارا فعلية فى التجارة الخارجية فى ميناء ناجاسـاكى حيث زادت بشـكل واضح الصـادرات من النحاس والموارد البحرية بعد أن كانت هذه المواد تسـتورد من الخارج وأصبح المؤشـر لصالح الصادرات حتى نهاية عصر الباكفـو، كذلك ارتفعت توقعـات البلاد الأجنبية فـى إمكانية انفتاح اليابان على العالم نظرا لهذه السياسة الإيجابية من جانب تانوما.

وهكذا نرى أن تانوما مارس دون أن يدرى السياسة الميكافيلية متمثلة فى اتخاذ كل الوسـائل المشروعة وغير المشروعة من أجل إنعاش اقتصاد البـلاد والباكفو على السـواء، إلا إننا لو اطلعنـا على كم الكوارث التى حلت بالبلاد فى فترة ميوا Meiwa (١٧٦٤م – ١٧٧٢م) سـوف ندرك

مدى الحظ التعس الذى صادف هذا الرجل، لدرجة أن اليابانيين كانوا يتندرون على هذه الفترة فى شـكل بيت من الشعر ويضيفون حرفا آخر للكلمـة ميوا لتصبح ميواكو ومعناها مضايقة لكى يُصبح معنى هذه الفترة فـترة المضايقات تعبيرا على كثرة الكـوارث الطبيعية التى حدثت بها، ويمكـن كذلك إضافة المجاعـة التى حدثت فى أواخر عصر تانوما وهى مجاعة تسـمى Tenmei No Kikin التى حدثت خلال الفترة من عام ١٧٨٢م حتـى عام ١٧٨٨م وهذه المجاعة تشـكل مـع مجاعتى كيوهو وتنبو المجاعات الثلاث الكبرى التى حدثت فى عصر إيدو ، والذى زاد الطين بله حدوث الانفجار البركانى بجبل أساما – الموجود فى محافظة ناجانـو – الذى اتبعـه هبوط كبير فى درجة الحرارة أثر فى المزروعات بدرجة كبيرة فحدثت مجاعة رهيبة أدت إلى حدوث هوجات وسلسلة حوادث من السـلب والنهب هددت مسـتقبل حكام المقاطعات والباكفو على السواء.

وفـى الريف زاد عدد الثورات التى كان يقوم بها الفلاحون بسـبب زيادة الضرائب العينية وكذلك عدم اهتمام نظام تانوما بهم فى حين كان اهتمامـه الأكبر بالتجار والتجارة، ومع تطبيق أعمق لسياسـة الاحتكار ارتفعت بشـكل واضح أسعار المواد الغذائية وغيرها مما أثر بشكل مباشر على حياة الفلاحين وسكان المدن الذين يعملون بكل جهدهم زاد تذمرهم وزادت ثوراتهم.

على أية حال ومهما بذل تانوما من جهد لإصلاح اقتصاد البلاد فإن اليابانيين إبان هذا العصر لم يشعروا بأية نوع من أنواع السعادة أو الفخر به وأصبح لسان حالهم يتلخص فى مجموعة أبيات شعر كان يطلق عليه

الشعر المجنون أو الضاحك (Kyōka) وهى كالتالى :

مـن تـقـابـلـهـم فـى عصـر تـانـــومـا هـم

القامرون والمسرفون والفنانون الهابطون والنصابون

ومن لاتـقـابـلـهـم فـى عصـر تـانـــومـا هـم

الـمحـاربـون والعلمـاء والمتفـوقـون والأوفـيـاء

ونلحظ هنا مقارنة بين خصائص عصر تانوما وبين خصائص العصر الذى سبقه وهو عصر الشوجون العظيم يوشيمونى . فقد تميز يوشيمونى بتقدم العلم وتشـجيعه وعدم الإسـراف . فيما تميز عصر تانوما بالفساد وكثرة الرشاوى والمحسوبية كما رأينا من خلال حديثنا عن عصر تانوما .

ولكن إذا تجاوزنا الشـعور الشـعبى الذى عادة ما يتسـم بالعاطفية ويبعد عن الموضوعية إلى حد ما ، فإنه يمكننا أن نلمس بعض الإنجازات العلميـة والثقافية . فمثلا فى مجال الطب نجد ترجمة لمدخل الجراحة تم طبعهـا فى عصر تانوما .. وقد تم ترجمة هذا الكتاب الهام عن اللغة الهولندية ، وبشكل عام فقد شهدت العلوم الهولندية Rangaku تطورا ملحوظا فى عصر تانوما . كذلك وجد عالم فذ مثل هيراجا .

لقى جنناى Hiraga Gennai (١٧٢٨م – ١٧٧٩م) – الذى اخترع آلة كهربائية تنتج الكهرباء عن طريق الاحتكاك – من تانوما تشـجيعا خاصاً، فقام بأبحاث نادرة عن المواد المعدنية وكذلك قام بتطوير وتنمية مناجـم النحاس، وبالطبع كل هذا كان يصب فى تنمية الصناعات التى كانت تلقى اهتماما ملحوظا من تانوما.

أمـا فـى النواحـى الثقافية فقد شـهدت أبحـاث اللغـة اليابانية تقدمـا واضحا، وكذلك تطورت الأشـكال المختلفة من الشـعر اليابانى

على يد السامورای وسكان المدن، ولم تستثنى الفنون الجميلة من هذا التقدم. فتم إنجاز اللوحات اليابانية الجميلة والرائعة والتى تسمى نيشيكى أى Nishikie على يد مخترعها الفنان سوزوكى هارونوبو Suzuki Harunobu (١٧٢٥م – ١٧٧٠م) فى عام ١٧٦٥م، وفى الحقيقة أن كل الأنشطة الثقافية التى ظهرت وتطورت فى عصر تانوما اتسمت بالحرية والحيوية، وربما يرجع ذلك لهذا القدر الكبير من الحرية والحركة اللذين اتسما بهما عصر تانوما.

توفى تانوما أوكيتسوجو فى عام ١٧٨٨م بعد أن حملت له الأقدار أخبارا سيئة فى أواخر أيامه، فهاهو ذا ابنه أوكى طومو يُقتل على يد أحد غرمائه وكان يدعى ماساكوطو وكان من محاربى الهاتاموطو وذلك فى عام ١٧٨٤م، وبعد عامين توفى الشوجون العاشر إيبهارو والذى وجد تانوما فى عهده أيامه الذهبية المزدهرة، وهكذا تدهور الوضع السياسى لتانوما حتى توفى، ثم استقبلت اليابان الشوجون الحادى عشر طوكوجاوا إينارى Takugau Ienari فى عام ١٧٨٧م وكان فى الخامسة عشرة من عمره، وفى عهده تم اختيار مستشار جديد هو ماتسودايرا سادا نوبو Matsudaira Sada nobu والذى سوف يكون محورا للحياة السياسية فى المرحلة القادمة.

وبعد تولى ماتسودايرا سادانوبو لمنصب المستشار الأكبر قام على الفور فى عام ١٧٨٧م بمعاقبة المستشار السابق له تانوما أوكيتسوجو بأن صادر من أملاكه خمسا وعشرين ألف جوكو من الأرز، وكذلك منعه لفترة طويلة من تقلد أية وظيفة عامة، وهكذا أنهى تانوما حياته السياسية بعد سلسلة من الإخفاقات ولم يلبث أن توفى فى عام ١٧٨٨م كما ذكرنا آنفا.

٣ - ساداتوبو الجاد وإصلاح كانسى :

بعد أن توفى الشوجون العاشر إيهارو وسقوط تانوما كان من المتوقع أن يكون تنصيب ماتسودايرا سادا نوبو (١٧٥٨م – ١٨٢٩م) فى منصب المستشار الأكبر سهلا ويسيرا، ولكن هذا لم يحدث، فقد كانت هناك معارضة شديدة له من الجناح المناصر لتانوما من المستشارين الآخرين ، وكان ذلك بالطبع لأنهم كانوا يدركون تمام الإدراك أن ساداتوبو النظيف الجاد سوف يكون عثرة كبيرة فى سبيل مصالحهم وامتيازاتهم التى حصلوا عليها أثناء الحكم الفاسد للمستشار السابق تانوما. وإلى جانب ذلك أيضا كانت هناك معارضة ضارية من نساء حريم الباكفو وذلك لأن سياسة ساداتوبو كانت تقوم على تخفيض المصروفات بشكل عام ولم يستثنى من ذلك حريم الباكفو فقد قام بتخفيض مصروفاتهن، ولكن هذه المعارضة راحت أدراج الرياح بسبب إصرار سادا نوبو على تطبيق سياسة التقشف التى نالت قطاعات عديدة من الباكفو.

وفى الحقيقة فقد أثبت سادا نوبو من خلال تمنياته المخلصة للباكفو وللمواطنين وكذلك من خلال سياسته الحازمة التى طبقها فيما بعد أنه خير خلف لخير سلف، فهو حفيد الشوجون الثامن يوشيمونى الذى يعد من أعظم الإصلاحيين فى عصر إيدو وهو فى ذات الوقت ابن عم الشوجون العاشر إيهارو.

ففى دعوته للآلهة البوذية التى تجلب السعاة للناس يقول: «أستحلفك بحياة حاكم إيتشو Etshu بأن تجعلى الحصول على الأرز يسيرا وألا يصبح غالى الثمن وأن تجعلى حياة الناس بلا متاعب بل تجعليها هانئة وهادئة، كذلك أدعوك أن تجعلى اقتصاد الباكفو جيدا، وأن تصل

كرامة ونعمة الشوجون إلى قلوب المواطنين، إننى أدعوك يا آلهة السعادة أن تحققى لى هذه الأمنيات والتى فى سبيلها أبذل حياتى بل وحياة زوجتى وأولادى على السواء».

جاءت هذه الأمنيات من قبل سادانوبو فى أول عيد لرأس السنة بعد أن تولى منصب المستشارية أى إنه كان عاقد العزم على إصلاح حال البلاد بكل ما أوتى له من قوة وعزم وذلك ما سوف نراه من خلال السطور التالية.

فى أول ظهور لسادانوبو كمستشار فى قلعة إيدو معقل الباكفو – لم يكن يرتدى سوى رداء بسيط من القطن ويحمل بيده صندوق الطعام الذى يحوى طعاما رخيصا أيضا ليس به أى شىء من الرفاهية التى يمكن أن تميز طعام مستشار الشوجون. وقد تعمد سادانوبو أن يجعل محمله يسير ببطء حتى يستطيع أكبر عدد من المواطنين أن يتقدموا بشكاواهم المباشرة مما يدل على مدى اهتمامه بشئون العامة من الناس منذ أول عهده بالمستشارية، وفيما بعد حاول سادانوبو أن يقلد ثورة كيوهو التى تحدثنا عنها فى بداية هذا الفصل والتى قام بها جده يوشيمونى وكانت الثورة الإصلاحية التى قام بها سادانوبو تسمى بإصلاح كانسى (Kansei noKaikaku) وذلك لأن الإصلاح حدث فى هذه الفترة التقويمية الخاصة بالتاريخ اليابانى والتى تمتد من عام ١٧٨٧م إلى عام ١٧٩٣م، وهذا الإصلاح يمثل مع إصلاح كيوهو وتنبو Tenpō nokaikalai الثلاث إصلاحات الكبرى التى تم إنفاذها فى عصر إيدو.

كان أول إجراء قام به سادانوبو بعد توليته المستشارية أنه عاقب

تانومـا كما ذكرنا آنفا، وكذلك قام بمعاقبـة موظفى الباكفو الذين كانوا يتلقون رشـاوى. وكان أكثر من تلقوا العقاب موظفى ديوان المالية الذين قاموا بأعمال فساد فقام بتقليص أعمالهم إلى النصف وكذلك حدد إقامتهم فى منازلهم لفترة ليست قصيرة، بل إن الأشرار من الموظفين تلقى بعضهم حكما بالإعدام، وتلقى البعض الآخر حكما بالنفى إلى الجزر النائية.

وبعد أن تخلص من الفاسدين بدءًا بتاتوما إلى أصغر موظف فاسد فى الباكفو التفت بعد ذلك سـادانوبو من أجل إصلاح السياسـة الاقتصادية للباكفـو، وكان أن بدأ بمنع المحاربين من الإسـراف وجعلهم يتدربون بجدية على الأساليب القتالية وكذلك شجعهم على تحصيل العلم.

وكخطـوة من أجل الإصلاح الاقتصادى ألغى سـادانوبو الشـكليات فـى المراسـم وخاصة بما يتعلق بدخول العاملين فـى قلعة إيدو بدءًا من المستشـارين الكبـار وحتى صغار الموظفين فقـد كان المعتاد قبل ذلك أن يدخل المستشارون الكبار ثم من يجىء من بعدهم فى المرتبة وهكذا حتى يدخـل الموظفون الصغار، فكانت هذه العملية تأخذ وقتا طويلا خصوصا فـى زمن لم تخـترع فيه بعد السـاعة، ولذلك قرر سـادانوبو أن يكون الدخول إلى القلعة على أثر سماع دقات طبلة السـاعة العاشـرة صباحا، على أن يدخل الجميع فى وقت واحد وليس تتابعا.

وعمل سادانوبو على تغيير عدة أوضاع رأى أنها غير صحيحة وكان أكثرهـا وضوحا أوضاع القرى السـيئة مما جعل الكثير من الفلاحين إلى هجـرة قراهم للمعيشـة بالمدن الكبرى وخاصة مدينـة إيدو، وقد كانت المجاعات التى عانها منها الريف السـبب الرئيسـى، وخاصة مجاعة تنمى الكبرى التى اسـتمرت من العام الثانى مـن فترة تنمى (١٧٨٢م)

وحتى العام السابع من نفس الفترة (١٧٨٦م) أى خمس سنوات متواصلة من المعاناة أدت إلى نقص فى عدد سكان الريف وصل إلى مليون وأربعمائة ألف نسمة. وفى المقابل زاد عدد سكان مدينة إيدو عدة عشرات من الآلاف. وبالطبع كان هدف هؤلاء النازحين من الأرياف هو أنه يمكنهم إيجاد طعام بالمدينة ينقذهم من الموت جوعا. كذلك كان هدف الحصول على أجور أعلى مما كان الفلاحون والعاملون بالريف يتقاضونها سببا آخر فى هجرة سكان الريف إلى المدن وخاصة أيدو. ومن أجل إيقاف هذه الهجرة الكبيرة من الريف إلى المدن قام سادانوبو بإصدار أمر بعدم خروج الفلاحين من قراهم من أجل العمل بالمدن وكذلك أصدر أمرا بعودة الذين هاجروا بالفعل إلى قراهم مرة أخرى على أن يشجع هؤلاء العائدين بدفع تكاليف السفر والمعيشة لهم إلى جانب إمدادهم بالنقود اللازمة لشراء الأدوات الزراعية لمعاونتهم فى العودة لأعمالهم الفلاحية.

ومن أجل إتاحة حياة أكثر أمانا من ويلات المجاعات التى كثيرا ما كانت تحدث فى عهد إيدو أمر سادانوبو بإنشاء مخازن وصوامع لتخزين الأرز فى الريف. كذلك أمر بتقليل الأعباء التى تقع على كاهل الفلاحين بسبب فرمان السخرة الذى كان يجعل الفلاحين يقومون بأعمال عامة مثل إنشاء الطرق والجسور دون أى مقابل. هذا إلى جانب إقصاء الملتزمين الفاسدين الذين كانوا يتولون بالنيابة عن الباكفو جمع الضرائب العينية من الفلاحين الذين كانوا يقاسون من قسوة هؤلاء الملتزمين.

وقد كان من أكثر مظاهر الفساد وضوحا فى عصر تانوما تلك المراباة التى كان يقوم بها العديد من التجار الأغنياء حيث كانوا ينتهزون معاناة السامورای وخاصة الهاتاموطو والجوكنين (Gokenin) من ضيق

ذات اليـدن فكانوا يحصلون على نصيب هؤلاء السـاموراى من رواتبهم مـن الأرز فـى مقابل إقراضهم ، وقد جمع هؤلاء التجار أموالا طائلة من جراء هذه العملية التى كان فيها الكثير من الخسـارة للساموراى، وهنا أصدر المستشـار سـادانوبو فرمانا يسـتطيع من خلاله هؤلاء الساموراى المتعثريـن التخلص من معظم ديونهـم لدى هؤلاء التجار المرابين، وذلك بإلغاء الديون التى كان قد مر عليها ست سنوات فأكثر، أما الديون التى مر عليها خمس سـنوات فأقل فهذه يمكن ردها على أقسـاط ، وقد كان هـذا الفرمان (Kienrei) بمثابة ضربة عنيفة لهؤلاء التجار الذين تكبدوا خسـائر فادحـة وأصبح فى ذات الوقت وكأنه طوق النجاة للسـاموراى المتعثرين.

إلا أن هذا الفرمان لم يكن له أية آثار إيجابية على الصعيد الشعبى، فلـم تتغـير أحـوال حياة المواطـن العادى قيـد أنملة، ولكـن لأن فئة السـاموراى بمختلف طبقاتها كانت تمثل شـريحة لا يسـتهان بها من سكان مدينة إيدو، فقد اعتبر هذا القانون من أهم الإجراءات الاجتماعية التى اسـتطاعت ثورة كانسى الإصلاحية إنجازها، وليس هناك من شك أن سادانوبو فى إصداره لهذا الفرمان كان يقلد جده الشوجون يوشيمونى عندما أصدر قانونا مشـابه لهذا الفرمان، ولكن سـادانوبو صار أبعد من يوشيمونى فى معاقبته للتجار المرابين.

ومـن الإصلاحـات الاجتماعية الهامة أيضا التى قام بها سـادانوبو مـن أجل أهل إيدو أنه وفـر قدرا لا بأس به من مصـادر المدينة المالية لادخارهـا من أجل الكـوارث والأزمات التى يمكن أن تحدث للمدينة، وعلى الأخص شـراء المحاصيل وتخزينها من أجل إنقاذ سـكان المدينة من خطر المجاعات.

كذلك رأى سادانوبو أنه من خلال تخفيض الأعباء عن ملاك الأراضى وملاك العقارت يمكن بذلك تخفيض إيجارات الأراضى والبيوت لعامة الشعب، وكان القدر الذى خصصه سادانوبو من هذه الأموال الموفرة هو ٧٠٪ مما تم تخصيصه للتخفيف من الأعباء الملقاة على عاتق المواطنين.

ومن الإنجازات الاجتماعية التى سبق بها سادانوبو زمانه بل ربما لا نجدها فى عصرنا الحديث، تلك الأماكن الإيوائية التشغيلية فى ذات الوقت لسكنى وتشغيل هؤلاء الذين تضرروا من مجاعة تنمى الرهيبة والتى تحدثنا عنها آنفا وبرغم مرور ما يزيد على عشر سنوات على هذه المجاعة إلا إنها أبقت على الكثيرين من الهائمين على وجوههم فى الشوارع بلا عمل ولا مأوى، فكان قرار سادانوبو الرائع بإنشاء هذه الأماكن فى جزيرة إيشيكاواجيما وقرية توكوبا وذلك فى عام ١٧٩٠م، وفى هذين المكانين جعل سادانوبو هؤلاء اللاجئين يعملون فى مختلف الأعمال مثل النجارة وطحن الأرز وعصر الزيوت والعمل فى قمائن الفحم. وأعطاهم سادانوبو أجورا على هذه الأعمال، وجعلهم يوفرون هذه الأموال من أجل استعمالها بعد خروجهم من هذه الأماكن الإيوائية، وبرغم ذلك فقد اعتبر المشردون والذين بلا مأوى هذه الأماكن سجونا لا غير، ولذلك كانوا يرتعشون خوفا عند سماع كلمة «أماكن الإيواء» وذلك ربما لأن الحياة فيها كانت أقرب لحياة السجون أكثر من حياة فى أماكن إيواء. وبرغم ذلك فقد زاد عدد الذين سكنوا هذه الأماكن من أقل من مائتى فرد فى بداية عهدها إلى بضع مئات عند نهاية عصر إيدو، مما يدل على نجاح هذه الفكرة ويدل أيضا أن عدد الكوارث التى مرت بها البلاد خلال القرن الأخير من عصر إيدو كانت كثيرة.

وهكذا صار ساداتوبو على نهج جده الشوجون العظيم يوشيمونى الذى قام بإصلاح كيوهو، ولكن بسبب تطرف ساداتوبو فى تنفيذ سياسته التقشفية وإصداره لأوامر التشديد والتقشف ، فقد مل الناس بمختلف طبقاتهم الحياة فى عهده وعلى العكس شعروا بالحنين نحو سياسة سلفه تانوما برغم فسادها، وذلك لأنها كانت سياسة انفتاحية إباحية وترفيهية فى ذات الوقت، وقام الناس بنظم أبيات من الشعر الفكاهى التهكمى يقارنون من خلاله بين عهدين، عهد كان متبسطا يبيح كل شىء مثله تانوما ، وعهد شديد القسوة يمثله ساداتوبو، وهنا شبهوا سياسة تشجيع ساداتوبو للأدب والفنون القتالية والتى يطلق عليها باليابانية بونبو Bunbu بطنين الناموس والذى يتشابه فى نطقه مع نفس الكلمة السابقة، فكانوا يتبادلون بيت الشعر التالى:

فى هذه الدنيا ليس هناك شىء مزعج مثل الناموس

فإذا قلنا بنوبو (الأدب والقتال) فهذا لا يجعلنا ننام بالليل

مما يعنى أن سياسة ساداتوبو القاسية جعلتهم فى قلق وأرق دائمين لدرجة أنها جعلتهم لا يستطيعون النوم ليلا وذلك مثل طنين الناموس.

وهناك بيت شعر آخر من الأشعار الفكاهية التى كانت تنتقد السياسة والسياسيين يقول :

السمك لا يستطيع الحياة فى المياه النظيفة الصافية

ولكنه يشتاق لتانوما السابق ذى العكارة

ومن خلال هذا البيت يتضح أن اليابانيين كانوا قد سئموا السياسة المثالية النظيفة التى كان ساداتوبو يطبقها، وحيث إنه كان حاكما على مدينة شير ـاوا التى تعنى النهر الصافى أو النظيف قبل أن يصبح

مستشـــارا، فى حين أن ســـلفه تانوما والذى يتكـــون اسمه من مقطعين (تـــا) وتعنى الحقـــل و(نوما) وتعنى البركة فـــإن كلا المقطعين يحتويان على معنى الطين والعكارة، ومن هنا جاء بيت الشعر السابق، بمعنى أن سياســـة تانوما وإن كان بها الكثير من المساوئ إلا إنها كانت أفضل من سياسة سادانوبو التى سئمها اليابانيون من كثرة أوامرها التى أتعبتهم.

ومع عدم رضاء الناس عن ســـادانوبو وسياســـته ،كانت علاقته أيضا مع الشـــوجون الحادى عشـــر إيينارى قد ساءت، مما أدى إلى الاستقالة من منصبه فى عام ١٧٩٣م (٥ من كانسى) وبذلك فشلت سياسة إصلاح كانسى التى حاول سادانوبو بكل الصدق أن يطبقها، ثم عاد مرة أخرى لمقاطعته القديمة شيراكاوا ليزاول السياسة بها ، وفى عام ١٨١٢م اعتزل ماتســـودايرا ســـادانوبو الحياة السياسية تماما ودخل فى عزلة عن العالم ليتفرغ لكتابة مذكراته الشـــخصية وكتـــب أخرى عديدة حتى توفى فى عام ١٨٢٩م.

٤ - الخطر الروسى :

فى أثناء إصلاح كانســـى قام ســـادانوبو بمعاقبة رجل الدولة الحاذق هاياشـــى شـــيهى Hayashi Shihei (١٧٣٨م – ١٧٩٣م) وذلك لتأليفه كتاب حربى كان الهدف منه تحذير اليابان من الخطر الروسى، واعتبر الباكفو أن كتاب هاياشـــى خاض بكثير من التفاصيل فى أسرار البلاد، أما كتاب هاياشـــى فقد نصح الباكفو بعمل التحصينات البحرية اللازمة لدرء أى خطر يجىء من البحر، ولأن اليابان دولة تحيطها المياه من كل جانب فلا معنى لتحصين ناجاســـاكى فقط ولكن لابد من تحصين كل

حدود اليابان البحرية، وعلى الأخص هوكايدو بسبب الخطر الروسى المحدق باليابان كما تصور هاياشى.

ولذلك كانت معاقبة سادانوبو لهاياشى سقطة من هذا المستشار الحازم. فقد كان يجب عليه مكافأته على هذا التفكير خاصة أن هاياشى نصح أيضا بتحصين جزيرة هوكايدو القريبة من روسيا، وذلك لتكون خط الدفاع الأول عن اليابان، وقد أثبت هاياشى بهذا التفكير أنه كان بعيد النظر لأبعد حد، وقد تحققت فكرة هاياشى هذه فى عصر ميجى كما ذكرنا فى كتابنا السابق عن هذا العصر.

وبعد عدة أشهر من نشر كتاب هاياشى وقع ما حذر منه هذا الداهية سابق عصره ، فقد جاءت سفينة روسية تحمل رسولا من الإمبراطورة الروسية اكتيرينا الثانية (١٧٢٩م – ١٧٩٦م) يدعى لوكسمان Loksman (١٧٦٦م – ١٨٠٣م). وجاء معه على نفس السفينة قبطان ياباني يدعى دايكوكويا كودايو Daikokuya Kodayu (١٧٥١م – ١٨٢٨م) وكان القبطان الياباني يقود سفينة من إيسى (محافظة ميى) متجها إلى ايدو، إلا أن التيار والرياح العاتية جرفته بعيدا عن المحيط الهادى وظل تائها لمدة ثمانية أشهر قبل أن يصل إلى جزر أليوشن حيث أنقذه الروس. وبعد عدة سنوات ذهب إلى روسيا حيث تلقى رعاية العالم لاكسمان وعن طريقه استطاع مقابلة الإمبراطورة اكتيرينا وقد حاولت روسيا عن طريق إعادة هؤلاء التائهين فى المحيط إلى اليابان أن تقيم علاقة دبلوماسية مع اليابان، ولذلك طلب عالم الأحياء لاكسمان من زوج ابنته الذى يحمل نفس الاسم (لاكسمان) أن يصطحب كودايو إلى اليابان حاملا الرسالة السابق ذكرها إلى الباكفو، ولكن كودايو عوقب على تلك الطريقة فى

العـــودة لبلاده بتحديد إقامته فى منزلـــه مدى الحياة، ويمكن أن نعتبر أن مصيره هذا هو أحد مآسى سياسة العزلة التى طبقتها اليابان آنذاك.

أما المبعوث الذى أتى بشكل رسمى من الإمبراطورة الروسية فقد طلب ولأول مرة التبادل التجارى مع اليابان، وهذا ما كانت تخشـــاه الباكفو لأنها كانت تعتبر أية نوع من العلاقات خارج الإطار الذى حددته وغير البـــلاد الأجنبية التـــى آثرتها بالتبادل التجـــارى، وكأنه بداية لدخول الأجانب للبلاد، وهذا مع ملاحظة أن الروس كانوا حتى هذه الرســـالة مـــن الإمبراطورة يأتـــون بالفعل إلى الأراضى اليابانيـــة ويقومون بالتبادل التجارى مع اليابانيين ولكن بشكل غير رسمى.

وانتظرت الباكفو حوالى عام كامل قبل أن ترد على رسالة الإمبراطورة اكتيرينا وجاء الرد كالتالى :

١ – يتم استلام اليابانيين التائهين فى البحر فى مدينة نمرو فقط.

٢ – عدم تسلم خطابات رسمية من الإمبراطورية الروسية.

٣ – إذا ما كان هناك رغبة فى التبادل التجارى مع اليابان فيكون ذلك فى ناجاساكى فقط.

وحتـــى لا يتم إغضاب المبعوث الروســـى لما فـــى ذلك من خطر على اليابان فقد تم تسليمه تصريح بدخول السفن الروسية إلى نجاساكى.

وبذلـــك انتهـــت الأزمة الطارئة ولو بشـــكل مؤقت، وعـــاد بعد ذلك المبعوث الروســـى لاكسمان إلى روسيا مباشرة دون الذهاب إلى نجاساكى ولكن ســـرعان ما أتى بعد ذلك بنفس الطريقـــة، أى مصطحبا معه بعض اليابانيين التائهين فى المحيط والذين تم إنقاذهم بواســـطة الروس وكانوا هذه المرة من منطقة سنداى وذلك فى عام ١٨٠٤م. وبعد أربعة أعوام فقط

اقتحمت السفينة الحربية الإنجليزية "فيتون" ميناء ناجاساكى بقصد القبض على سفينة حربية هولندية والتى كانت قد وقعت تحت احتلال نابليون، وقامت هذه السفينة بعمل بعض الأبحاث والقياسات داخل الميناء، وأمرت اليابانيين بإمدادها بالمؤن وبعدها غادرت الميناء، وقد تحمل مدير إدارة ميناء ناجاساكى المسئولية عن هذا الإخفاق وانتحر بسببه .

هكذا صدق حدس رجل الدولة الحاذق هاياشى شيهى الذى حذر الباكفو من خطر مجيء الأساطيل الأجنبية التى يمكن أن تخترق أراضى اليابان ما لم يكن هناك تحصينات بحرية قوية، وقبل وفاة هاياشى بسنة واحدة أى فى عام ١٨٣٧م وقعت حادثة السفينة الأمريكية موريسون حيث جاءت هذه السفينة إلى ميناء أوراجا الواقع فى محافظة كاناجاوا القريبة من إيدو وذلك بحجة تسليم سبعة من اليابانيين التائهين فى البحر لحكومة الباكفو، وبهدف التبادل التجارى مع اليابان، ولكن الباكفو واجهتها بحزم وأطلقت النيران عليها، وفى نهاية عهد الباكفو جاء القبطان الأمريكى بيرى بسفنه يهدد الباكفو بأشد العواقب إذا لم تفتح موانئها أمام السفن الأمريكية، وهكذا تتابعت حوادث اختراق المياه والموانئ اليابانية على مدى نصف قرن تقريبا بدأت بقدوم سفينة لاكسمان لكى تؤكد جميعها ما صرح به هاياشى فى كتابه الحربى المهم، والذى تلقى عليه عقابا شديدا من سادانوبو.

ولكن برغم الإهانة التى تلقاها هاياشى بسبب فكره الثاقب فقد أذعن ماتسودايرا لهذا الفكر وقام بالفعل بعمل التحصينات المتاحة له فى مختلف المقاطعات نظرا لاستيعابه مدى خطورة الوضع الدولى لدرجة

أنه قام بنفســه بمتابعة الإنشــاءات التحصينية على طول ســواحل إيزو (محافظة شيزوأوكا) وساكا (كيوشو).

* * *